

الحكيم عُمر الخيام، فيلسوف مجهول

جعفر آقاياني جاوشي

باحث في التاريخ وفلسفة الرياضيات

و عضو الهيئة العلمية بجامعة الشريف الصناعية*

نقدم هذه المقالة الى معالي الدكتور مهدي گلشني

المقدّمه

اشتهر عمر الخيام في أرجاء العالم برباعياته وآثاره الشعرية كما حظت آثاره الرياضية ورسائله الفلسفية باهتمام العلماء والباحثين.

ورغم الشهرة والصيت والمقام الذي ساد عالم الأدب والعلم مدة قرن ونصف لا تزال شخصيته الحقيقية مجهولة، حيث سطعت أنوار شاعريته في الأجواء وحتى طغت على اعتباره العلمي.

نعم إنَّ عمر الخيام لم يعتبر شاعراً من شعراء الطبقة الممتازة في ايران لكنه الشاعر الايراني الأوحّد من حيث المعجبين وقراء القرّيب في أرجاء وأفطار

* دَوّن الدكتور جعفر جاوشي هذه المقالة باللغة الفرنسيّة وترجمها الى الفارسيّة الاستاذ محمد مهدي فولادوند الاستاذ بجامعة طهران سابقاً ونشرها في مجلة فرهنك العدد ١٤ الخاص بعُمر الخيام، وقام الدكتور فيسر آل قيس استاذ الأدب العربي بمعهد العلوم الانسانية والدراسات الثقافية بترجمتها الى اللغة العربية.

المعمورة والشعوب المختلفة، وإن آلاف الصحف والمجلات والكتب والدواوين التي نشرت ترجمة رباعياته إلى اللغات الحية في عالمنا الراهن خير دليل على حُبِّ وشغف الشعوب غير الناطقة بالفارسية بأشعار الخيام ولطافتها ورفقتها.

كما منحته الشعوب نمطاً ولوناً و صورةً لعشق الجمال الذي ساد المعمورة من انكلترا و عبر امريكا، وحلّ في أجواء العالم المختلفة.

أما الشغف الخيامي الذي سيطر على أبناء بريطانيا فيتجلّى في نبوغ أحد شعرائهم وهو [فيتزجيرالد] حيث كانت رباعيات الخيام مصدر إلهامه فقام بترجمتها ترجمة حرفية ملتقطة^١.

ومع شديد الأسف كان هذا الإلتقاط و تحريف الكلام مصدراً لإدانة الرباعيات وسبباً لتحكيم غير عادل لا انصاف فيه . وقد جعل البعض من الخيام انساناً شكاكاً من اتباع فلسفة ابيكور [Epicurien]، والحقيقة أنّ عمر الخيام (كما روت كافة التواريخ الموثقة) كان رجلاً مسلماً ملتزماً مؤمناً مُنفذاً لأحكام الدين الاسلامي الحنيف، وهذا الأمر صادر من عقائده الميتافيزيقية .

يرى بعض الباحثين أنّ نوعاً من التصوف قد القى بشكل أو بآخر ظلّه على أشعار الرباعيات، وقد غرب عن خلدتهم وافكارهم أنّ الخيام و «نزعته العقلية» كان تحت الحملات الدائمة التي كان يَشْنُهَا بين آونة و أخرى عدد من المتصوفة المتزمتين وُسْطاء الأنام. كما استنشق البعض من الرباعيات رائحة «النزعة الشائمية»، وقد تناسوا أنّ رسائل الخيام الفلسفية توحى إلى غير ما ذهبوا اليه.

بناءً على هذا كانت افكار الناس في الخيام تتأرجح بين كونه معلم أخلاق ، وماجناً غائباً، وصوفياً في بعض الأحيان، وزنديقاً في الأحيان الأخرى. و حول معنى الشرابِ والسُّكرِ المتداول في أشعار الشعراء فهناك آراء متضاربة ، كُلُّ له رأيه .

وكان لظهور الكتب المختلفة والمزيفة مثل كتاب نوروزنامه^٢. أثر أريك وشوش الافكار والآراء، و ذلك لأنّ نشر واصدار مثل هذه الكتب والتي

1. P. Salet, *Omar Khayyam, savant et philosophe*, paris 19927. p. 19.

٢. كتاب فارسي مختلق مجهول المؤلف، جاء في أوّله ذكر الخيام مرّة واحدة فقط، نشر هذا الكتاب بالفارسية الاستاذ مجتبی مینوی سنة ١٣١٢ هـ بطهران، ترجمه إلى الفرنسية المستشرق هانري ماسه.

تصحبها الضجّة والدعاية والاشاعة في اغلب الأحيان تجعل عامّة الناس الذين يجهلون تاريخ الآداب الايرانية يروّجون هذه الأخبار غير الموثوقة وينسبونها الى عمر الخيام. ولناخذ مثلاً ما قاله المستشرق آرنست رنان، حيث ذكر في كتابه المشار اليه في الهامش:

«الخيام أكبر شخصية أثّرت حولها التساؤولات، مما يحدو بنا الى البحث والتحقيق حوله كي نطلّع على ما أنزله الاسلام على «النبوغ الايراني» إثر رجعيته وسلفيته وتمسكه بالقديم ناهيك عن الإجبار والإكراه والتسر والإغام»^٣.

كما أن كشف رسالة الجبر والمقابلة للخيام وترجمتها الى اللغة الفرنسية بواسطة المستشرق [وبكه = F. Woepcke] قد زاد طين المسئلة السابقة بلّة وزاد الأمور تعقيداً حين قال: من أصعب المشاكل أن نجتمع بين شاعر هذّار، ورياضي جبار، إلا أن نخترع معادلةً خارقة للطبيعة. وذلك لأن المعادلات الرياضية ومسائل الجبر والهندسة لا يمكن أن تكون نتاج عقل طليق مستهتر ممازح لا أبالي.

و على هذا النمط والمنوال ظهرت اسطورة الخيام الفيلسوف الشاعر عالم الرياضيات وكانت النتيجة أن ملأت ترجمة حياة الخيام بأساطير وقوالب خاوية وجرى تقييم الخيام على الأخبار المتناقضة لذا يجب أن تكون أخلاق وطباع وسيرة الخيام سطحية المستوى خاوية المعنى وهذا أمر لا مفرّ منه ولا مندوحة حيث يضع القارئ في دوامة من الحيرة والدهشة وأمام سؤال يقول كيف يجب تقييم الجانب الجاد الرصين والعلمي والفلسفي للخيام؟ وهناك خطر أعظم وأخطر من هذا كُله وهو «اين نضع الخيام وفي أي تبويب مختلف صوري ظاهري؟!»

ما يجب أن نقوم به كي نمنح الخيام صورة واضحة وضاعة؟ هل نُقدّم مؤلفاً آخر يرفع رصيد الكتب الكثيرة التي ألّفت عنه، و هل هذا الجهد مُثمراً؟

نعم نحن ننظر لهذا الموضوع من هذه النُرجة، ونُصِرُّ بالحاح على طرح أفكاره الفلسفية الأثيلة على بساط البحث، وذلك لأننا بعد أن نستحوذ على المقاييس التي

3. E, Renan, "Rapport sur les travaux du conseil de la société asiatique pendant l'année 1867 - 1868", *Journal Asiatique*, Juillet - août 1868, p. 57.

4. F. Woepcke, *L'algebre d'Omar Al-Khayami*, publiée, traduite et accompagnée d'extraits inédit, paris 1851.

تعبیر عن أصالة الرباعیات مما يأخذ بأيدينا إلى شرح وتفسير أشعاره على ضوء أشعة شمس النصوص الفلسفية؛ أما ترجمة حياته فهي متيسرة هنا وهناك في طيات مصنفات التراث. و بهذا نسلط الأضواء على أصل المعتقدات والأفكار الأثيلة لعمر الخيام

دُنیا أشعار الخيام

إنَّ الدخول إلى دُنیا أفكار العلماء ذوي الأفكار الواسعة المتلاطمة الموج يحتم علينا أن نكون بمستوى تلك الأفكار وعالمها اللامتناهي، كما أن المرآة الكدرة للتاريخ لا تنقل إلينا هيئة ومنظر الحوادث بالشكل المطلوب والحقيقة على حقيقتها، ولهذا فإنَّ اظهارة الحقائق بشكلها الواقعي أمرٌ محالٌّ، ومن المتفق عليه أن التاريخ يُساعد الباحث إلى الوصول إلى مبتغاه، وعلى هذا يجب أن لا نتردّد ونتوقّف أمام نصوص التاريخ، لأن الوصول إلى معرفة كُنه العلماء والشعراء والأدباء يُحتم علينا الرجوع لأشعارهم وآثارهم وفلسفتهم، واستناداً على هذا ومن أجل معرفة الخيام على حقيقته يجب دراسة وتدقيق رسائله الفلسفية، وتفسير وتحليل وبحث وتفصيل أشعاره.

إنَّ الرباعيّات ليست خاصّة اقتصر عليها أشعار عمر الخيام ، بل هي نوع من الشعر اختص به الأدب الفارسي. و تتكوّن الرباعيات من بيتين (أي أربعة مصاريع) على أن تشمل القافية المصراع الأول والثاني والرابع، أما المصراع الثالث فلا وجوب للقافية فيه (وإن وُجدت فلا بأس به). والظاهر أنَّ عمر الخيام نظم رباعياته وهو في شأن وحالة وموقف وبيئة سيطر عليها الحزن والشجن والكآبة والحسرة والضجر والسامة واللوعة، حتى أنَّ الخيام لم يعقد العزم على جمع هذه الرباعيات بمجموعة أو كتاب، ومن المحتمل أن يكون هذا العامل هو السبب في جهل معاصريه للرباعيات، ولتوضيح هذا يجب الاعتراف بأن أفكار الخيام لم تقتصر على شاعريته وقريحته الشعرية فقط، وذلك لكونه فيلسوفاً في الدرجة الأولى ثمَّ عالم رياضيات، ولهذا كانت أشعاره صوت صراخ غيظ، وضوضاء هيجان غلب عليه وسيطر على روحه، وليست هي بروح الشاعر «رودكي» أو «منوچهري» أو «عنصري» كي تهز القلوب وتهفهف العواطف، وليست بالملمحة الحماسية كي نضعها إلى جانب

«شاهنامة الفردوسي» أو حماسة «نظامي»، وليست شكايوي غرام تضطرم فيها نار الهجران وحريق الغرام، ولا وصفية نصف بها الربيع والزهور والجمال و تنتغزل بها كما جاء في اشعار «سعدي» و «حافظ» و «عراقي».

كما لم توافق قريحته الشعرية قريحة «عطار» و «سنائي» كي نجعلها في مصاف الشعر العرفاني والصوفي. ولكن يمكننا أن نجعل اشعار الخيام في فصيلة أشعار «مولانا جلال الدين» لوجود صيغة مشتركة فيما بينهما لاشارك الشاعرين في الفكرة الفلسفية والروية العلمية.

نعم كانت دنيا الخيام كدنيا مولانا جلال الدين الرومي فُرَجَّةً وَمَشْهَدًا حيث كانت دنياه تصارع الانسان بكل ما يحدث وبكل شيء، أما امتيازه فهو أن شعره العرفاني يتوجه بوجوده وشوقه وهيامه وضرامه الى السماء حيث يتلاطم موج عواطفه وتطفح الحياة بالموسيقى الساحرة.

إنَّ الخيام يتفرس بنظره وَخَلَدِهِ مواضيع أخرى حيث يتطَّلَع الى الجمال والملاحمة والوسامة، والطراوة والنضارة والحدائثة، والفرح والسرور والنشوة والأبتهاج من جوانبها الخفية وجهتها الثانية ووجهها الآخر، حيث يرى نفسه تواجه تلك المشاعر والأحاسيس، ولم تكن له الجرأة الأدبية الكافية كي يطرح هكذا افكاراً تفصلها عن زمانه سنوات عديدة، لهذا لم يشتهر هذا الشاعر الفيلسوف في عصره. و بعد مئة عام من وفاته أشار الكاتب الصوفي نجم الدين الرازي [أبو بكر عبدالله بن دايه] في كتابه مرصاد العباد [من المبدء الى المعاد - بالفارسية] الى بيتين من رباعيات الخيام .

وفي أدناه الترجمة العربية لنص ما جاء في كتاب مرصاد العباد :

ولقد تبين الآن، ما الحكمة من سوق الروح النيرة البريئة العذرية التي هيكل ترابي مظلم حقير ذليل. ثم لماذا المفارقة والانفصال وقطع الارتباط الروحي من البدن بعد اضمحلاله؟ ثم ما السبب في عودة الروح الى البدن يوم النشر؟ هم بذلك يخرجون من «اولئك كالانعام بل هم اضل»^٥. ثم يعادون الى مكانة الانسان ويعتقون من حاجز الغفلة، حيث يضعون قدم الذوق والشوق على طريق السلوك والتأدب و يضعون قدم الذوق والشوق على طريق السلوك والتأدب و يصنعون على بساط عالم الحقيقة

ما كانوا يتصوّرونه نظرياً، وهذا نظر ثمر الإيمان، وثمر قوم العرفان .
وحُرِّمَ من هاتين المنزلتين الفلاسفة والدهريون والطبيعيون، فهم ضالون تائهون
متحيرون خاسرون غاوون مخدعون .

و هناك أحدُ الفضلاء اشتهر بين المكفوفين بالفضل والحكمة والكياسة «وهو
عمرالخيام» ومن شدّة الحيرة والضلالة قال البيتين التاليين :

عصرُ الحياة الذي نقضه أجباراً	نتركة قسراً وإرغاماً واكباراً
لا نعرفُ البدء من ايامنا سلفاً	ولا النهاية، ظلّ العلمُ مُحْتاراً
لم يفسح الخلقُ من معناه أنملةً	لا يدركُ الغيبُ من قد كان مهذاراً
هذا المَجِيءُ الذي قد عمَّ كوكبنا	من اين جاء؟ وأئنّ العود تكررًا ^٦

[وأيضاً]:

الصانعُ إذ أحسنَ في التركيب	لِمَ يخرجُ نظمةً عن الترتيب؟
إن ساءَ فَمَنْ أحقُّ بالتشريب	أو أحسنَ، ما الحكمةُ في التخریب؟ ^٧

و هناك عشر رباعيات ظهرت في بعض الكتب خلال القرن السابع والثامن
والتاسع الهجري ونُسبت الى عمرالخيام. إنّ هذه الرباعيات بأصالتها والى حدّ ما
قدّمتهما يمكن اعتبارها مقياساً وقاعدة لتمييز و تشخيص أشعار و مقطوعات
عمرالخيام عن الاشعار المنسوبة اليه والتي ظهرت في الأونة الأخيرة بشكل
مجموعة ثم بشكل متفرق متشتت فيما بعد.

أول نسخة من الرباعيات ظهرت الى الوجود بشكل مجموعة مستقلة هي
مخطوطة مكتبة «بودليانا = Bodlianae» آكسفورد المدونة سنة ١٤٦٠ م / ٨٦٠هـ
أي بعد ثلاثة قرون ونصف من وفاة عمرالخيام. تحتوي هذه المخطوطة على ١٥٨
رباعية، و من هذا التاريخ بدأت المجموعات الحاوية على الرباعيات بالزيادة كما
شملت الزيادة الرباعيات نفسها. فكانت النسخة التي ترجمها «نيكلا» الى اللغة
الفرنسية سنة ١٨٦٧ م تشمل ٤٦٤ رباعية، و قد زاد عدد الرباعيات عن هذا العدد
في النسخ والمنشورات الصادرة في أقطار الشرق والغرب^٨.

٦. الترجمة العربية للرباعيات بقلم الدكتور فيس آل قيس مترجم المقالة هذه.

٧. محمد مهدي فولادوند، *خيام شناسي*، طهران ١٩٦٨ م، ص ١٠-١٢ [بالفارسية].

8. G. Lazard, " Le mystérieux poète Khayyam", texte de conference au
Congrès International sur Omar Khayyam à Nishabour (Iran) 17-19 mai 2000.

قد تُشاهد بين الرباعيّات المنسوبة إلى عمر الخيام مئات الرباعيّات الموجودة في دواوين شعراء الفارسية الآخرين، حيث يمكننا أن نطلق على هذه الرباعيّات اسم «الرباعيّات المتكثّمة». وممّا لا يغرب عن بال أحدٍ أنّ عمر الخيام كان عالماً فيلسوفاً، وعلى هذا نرتأي أن يكون القياس والمعيّار في صحة وسقم الرباعيّات المنسوبة إليه مقياساً علمياً فلسفياً.

قال البروفسور ساله: «قبل أن نُحبّذ ونستحسن وتؤيّد نسخة واحدة من نُسخ رباعيّات الخيام، علينا أن نجتمع الأشعار التي نسبها إليه الإيرانيون ثمّ نستصفي منها الرباعيّات ذات القيمة الفلسفية أو الرباعيّات التي تحوي اصطلاحات علم النجوم السائدة في زمن الخيام وتُرجّح نسبتها إليه»^٩.

وإذا تجاوزنا هذه النظرية، وتوجّهنا إلى آراء الأساتذة الإيرانيين، وافكار ونظريات المستشرقين حول صحة الرباعيّات، نرى الاستاذ «محمد مهدي فولادوند» مثلاً قد أشار في كتاب له ألفه في هذا المضمّار وطبع في طهران، حيث قال:

١- كُلُّ رباعيّ خياميّ عريق يجب أن يستند على أربعة مقوّمات تستند المصارع الثلاثة على المصارع الرابع كي يؤدي المعنى المنشود، لذا يجب حذف الأشعار المتكوّنة من ثلاث مصارع أو من مصرعين اثنين لأنها غالباً ما تكون خاوية سطحيّة المعنى.

٢- الشرط الثاني للرباعيّات الخياميّة الأثيلة هي كونها متوازنة اللفظ والمعنى أي أنّ القيمة المعنوية للفظ توازي القيمة الأدبية البلاغية للمعنى ولا مكان فيها للمغالطة الكلامية والتملّق والروغان، كما تسمو فيها البلاغة والفصاحة وجزالة المنطق.

٣- الرباعيّات الحقيقية للخيام تحكي الحزن والأسف والحسرة واللهفة والأضطراب والجزع والحيرة لقصر العمر وعجز الانسان وضعفه ووهنه أمام فهم و درك لغز وكنه ومعضلة الحياة و غلبة وانتصار الموت والفناء. وأخيراً تحكي الرباعيّات الخياميّة الحقيقيّة الاستفهام والإستفسار والتمرد والطغيان والتردّد والشكّ والريبة.

٤- يسود رباعيّات الخيام موضوعان رئيسيان هما: «فزع ومهابة وخشية الموت»،

و «قبض الروح»، وليس الدعوة إلى استغلال واستثمار اللذة والاستمتاع والظلي^{١٠}. إن الإلتزام بالمقاييس والمؤشرات المشار إليها يُمكننا اقتفاء وتتبع آثار رباعيات الخيام الأصيله، حيث ندرس وتُحلَّل استفسارات وطغيان وريبة وشك الرباعيات الخيامية على ضوء وثناء النصوص الفلسفية لعمر الخيام. وقبل الخوض في غمار هذا البحث نودّ الإعلام بأننا استندنا على المقاييس والمؤشرات الأربعة التي ذكرها الاستاذ «فولادوند» في كتابه [بالفارسية]، «خيام شناسي» في انتخاب الرباعيات التي سنبحثها فيما يلي، وقد غصّينا الطرف عن الموارد الاستثنائية.

التشاؤم الخيامي

منذ بدأ الخليقة، عندما يقهر الإنسان ويفشل في حياته اليومية يميل إلى الوحدة ويهرب من الاضطراب والإرتباك وشروذ البال غير المثمر، ويتعد عن الخطيئة وسيء الفعال والدناءة والتفاهة؛ ويسعى إلى تدبّر وتذكّر وتفكّر قسمة ومقدّرات ومصير الإنسانية والسيئات والموت. ويصبح تحت وطأة الحزن والتأسف والشجو والكرب العظيم، حيث يرفع يديه ويدعو السماء بمرارة وبصوت اعتراض مرتفع، ومع الأسف قد يؤدي هذا الحزن والضيق والكآبة والوحشة في أغلب الأحيان إلى التشاؤم وإلى ما لا تحمد عقباه. علوم اناني وطاعات فرنگي

في العصور البعيدة الماضية، نهض «بوذا - Bouddha» معترضاً على الأيام، فنّادى: الموت عذاب - الإشتراك مع مَنْ أكرهه عذاب - الابتعاد عن الأحبة عذاب - الفشل والخيبة والإخفاق عذاب - ومُخلاصة القول إن كُل ما ارتبط بالحياة عذاب^{١١}. وفي اليونان القديم كانت هناك مشاعر وعواطف مشابهة لما جاء أعلاه، حيث نقل لنا التاريخ اسم رجلين كانا من فلاسفة اليونان قبل «سقراط»، وكانا يمتازان بالتشاؤم، وكان أحدهما يُظهر حُرنة وشجونة وكآبته بالإيتسامه الباهتة والضحكة المدوية، والآخر بالبكاء والدموع^{١٢}.

١٠. محمد مهدي فولادوند، خيام شناسي، طهران ١٩٦٨م ص ١٠-١٢ [بالفارسية].

11. Olenberg, *Le Bouddha*, Traduction française, paris 1894, p. 214.

12. J.p. Dumont avec D. Delatte et J.L. pocrer, *Les présocratiques*, paris

وفي القرون الإسلامية الوسطى، كان محمد بن زكريا الرازي [ت ٣١١هـ]، وأبو العلاء المعري [أحمد بن عبد الله، ت ٤٢٩هـ] من المتشائمين، وكانا قبل عمر الخيام قد بكيا وأبكيا.

كان الرازيُّ يعتقد أنَّ الشرَّ والإستهجان أكثر انتشاراً على وجه المعمورة من الخير والجمال والبهاء والملاحة، وحينما نضع المُستهجنات والمشاكل والقساوة والشدائد والشرِّ في كفة قسطاسٍ، ونضع خير الدنيا النزير في الكفة الأخرى سَيَتَضَحُّ لنا أنَّ الحياة البشريَّة لا تتعدى كونها تعاسة وشفاء ونحاسة ونكد وكارثة كبرى^{١٣}. أما تشاؤم أبي العلاء المعري، فهو أشد نحوس، وأسوء حظاً، وأتعس طالع، حيث يعتقد أن الحياة عطاء غير مناسب أو خطيئة ومأثم وجريرة وجريمة يرتكبها الآباء بحق الأبناء، لذا امتنع عن الزواج كي لا يلد له ولد يقع في جهنم هذه الحياة الدنيا، وأوصى أن يُكتب على قبره: «هذا جناة عليّ أبي وما جنيت على أحد».

رغم التشاؤم الكبير الذي اشتهر به عمر الخيام لكن هذا التشاؤم يختلف اختلافاً مطلقاً عن تشاؤم أبي العلاء المعري وتشاؤم محمد بن زكريا الرازي.

نعم إنَّ التشاؤم المسيطر على الرازي والمعري قد بُني على أنَّ أساس الكون و عالم الوجود تشاؤم، وأنهما ينظران إلى عالمتنا من خلف زجاجة قاتمة مُعتمة مُظلمة كئيبة مُكفهرة، والنتيجة واضحة فهما لا يريان إلا الظلام الدامس، والعتمة الديجور. أما عمر الخيام فقد سحره جمال الدنيا و سلب بُهَّها وما القبح والشين والتشويه والشناعة إلا عارضاً من الطائرات العابرات، حتى أنَّه قد وافق بين الشرِّ الطاريء وبين الحكمة البالغة والعدل الإلهي، حيث قال:

«إنَّ الموجودات الممكنة فاضت من الوجود المقدس على ترتيب ونظام، ثم من الموجودات ما كان متضاداً بالضرورة لا بجعل جاعل، وإذا وجود ذلك الموجود وَجَدَ التضاد بالضرورة، وإذا وجد التضاد بالضرورة، وَجَدَ العدم بالضرورة، وإذا وجد العدم وجد الشرِّ بالضرورة».

وأما من قال: إنَّ واجب الوجود أوجد السواد أو الحرارة حتى وجد التضاد - لأنَّ

→ 1988, p. 7 58.

13. Maimonide. *Le Guides des Egarés*, traduit en français par S. Munk. Nouvelle edition, paris 1981, Tom 3, pp. 67-68.

«أ» إذا كان علة لـ «ب»، و «ب» علة لـ «ج»، فيكون «أ» علة لـ «ج»، فأنه قال صواباً حقاً لا مَجْمَعَةً فيه؛ لكن الكلام في هذا الموضوع ينساق الى غرض وهو أن واجب الوجود أوجد السواد فوجد التضاد بالضرورة، فيكون واجب الوجود قد أوجد التضاد في الأعيان بالعرض لا بالذات، هذا لا شك فيه، إلا أنه لم يجعل السواد مُضاداً للبياض، وإنما أوجد السواد لا لمضادته للبياض بل لكونه ماهيةً ممكنة الوجود، وكل ماهية ممكنة الوجود فأن واجب الوجود يوجدها، لأن نفس الوجود خير، لكن السواد ماهية لا يمكن إلا أن تكون مُضادة لشيء آخر، فكل من أوجد السواد لأجل كونه ممكن الوجود فهو الذي أوجد التضاد بالعرض، ولا يكون الشر منسوباً الى موجد السواد بوجه من الوجوه، إذاً القصد الأول (وجل عن القصد) بل العناية السرمدية الحقّة توجّهت نحو الخير إلا أن هذا النوع من الخير لا يمكن أن يكون مُبرّأً خالياً من الشر والعدم؛ فليس الشر منسوباً اليه إلا بالعرض وليس الكلام ههنا فيما بالعرض بل فيما بالذات .

وإني أوصي كل من أعرفه من الحكماء بتقديس ذلك الجنب عن الظلم والشر، و ههنا من التفصيل والتحصيل ما لا تفهمه العبارة ولا يقدر المخبر عن الاخبار به لقصور البيان عنه، والحدس المصيب ينال من ذلك الروح ما تقع به النفس الكاملة وتذوق به اللذة العلقية القصوى .

وههنا سؤال آخر ركيك جداً عند معني النظر في باب الإلهيات ، وهو أنه لِمَ أوجد أمراً كان يعلم أنه يلزمه العدم والشر؟

فيكون الجواب عنه، أن السواد مثلاً فيه ألف خير وشر واحد، والإمساك عن ايراد الف خير، لأجل لزوم شر واحد، إياه شر عظيم، على أن النسبة بين خير السواد و شره أعظم من نسبة ألف إلى واحد، وإذا كان هذا هكذا، فقد بان أن الشر موجود في مخلوقات الله بالعرض لا بالذات، وبأن الشر في الحكمة الاولى قليل جداً، لا نسبة له في الكمية والكيفية الى الخير^{١٤}.

نعم كان استدلال الخيام جداً لطيفاً ممتعاً لكنه غير مقنع منطقياً وعقلياً، لأنه لم يُفرّق ولم يَفْصَلْ ولم يَعزِلْ بين الشر الطبيعي كالمريض مثلاً وبين الشر الميتافيزيقي كالذئب. اضافة الى اسناد «الشر» الى أمر عرضي غير مُرضٍ أبداً، لأن الخيام نفسه قال

ضمن هذه النظرية إنَّ ظاهرة الشرِّ تستند على أمور أوجدهما واجب الوجود رغم أنَّ ايجادها لم يكن مُباشراً، كما أنَّ استدلاله يستند على كميّة الشرور، وهذا الأمر يمكن الاستفادة منه كحربة تتَّجّه إلى الخيام نَفْسِه، وأنَّ وجود كلمة «الشرِّ» على مسرح الإيجاد والتكوين والبرء رغم صغرها فهي كبيرة جداً. و علاوة على هذا فإنَّ الخيام يؤيد أمراً لا يعرف هو نفسه مصير هذا الأمر.

حيث يقول : أجمع الخير إلى بعضه، وأضف الشرِّ إلى بعضه، وأطرح أحدهما من الآخر؛ إنَّ الخيام لم يتمكن أن يُقدِّم حاصل عملية الطرح، لأنه لم يتم باجراء نظرية كهذه، لذا فقد عجز عن الجواب، كما لا يتمكن أي عالم آخر أن يقدم جواباً لمثل هذه النظرية. و مما لا يخفى على صاحب البصيرة أنَّ الموجبات والسلبيات هنا تجعلنا أن نؤمن بأنَّ الزائد أخو الناقص كما أنَّ الزائد والناقص ينهضان للدفاع عن بواعث واسباب و علل المعادلة ولكن سَهْمَهُمَا الطائش لا يصيب الهدف المنشود. كان عمر الخيام حكيماً ربانياً مُسلماً، وكان مُتضلعاً متمكناً من الدفاع وبأساليب تتماشى وأصول الدين الاسلامي الحديث. والواقع أنَّ مسألة «الشرِّ» ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة «الحرية»، واذن لن نأخذ «الحرية» بنظر الاعتبار لا نتمكن الدفاع عن مسألة «الشرِّ»، وبدون هذا الارتباط والتناسب والإئتلاف لا نتمكن أن نوجه مسؤولية «الشرِّ» إلى أي مخلوق .

إذا لم تكن الحرية، فستقعُّ مسؤولية «الشرِّ» على الباري، ومثلاً خلاف فيه أنَّ الشرِّ لا يصدر عن ربِّ عادلٍ حكيم رحيم، بل الشرُّ مُنبثق عن نشاط وفاعلية الإنسان الكاذبة، أو بعبارة أخرى، إنَّ الشرُّ منبعت عن ضعف و عجز الإنسان .

إنَّ الله «عزَّ وجلَّ» خلق الناس أحراراً، ومنحهم حقَّ الاختيار والانتخاب و مطلق التفويض، كي يتمكنوا من نقض الأحكام الإلهية وخرق القوانين السماوية والإنسانُ ميال إلى الإفك والخطيئة والإثم ومُسبب و داعية للشرِّ. نتيجة إذا استسلمنا وأدعنا بوجود «الشرِّ»، ماذا سيكون معنى وفحوى ومضمون المتفائل المستبشر، وكيف سنطرح هذا على بساط البحث .

الإجابة على هذا الإنتقاد أو الإعتراض تكون على الشكل الآتي، إن الله بعث الانبياء والرُّسل بالبيّنات ودين الحقِّ مبشرين منذرين بالهدى كي يُزيلوا الهرج و المرج والفوضى والإنفلات الأخلاقي والتربوي والأمني والاقتصادي والديني

المنبعث من «الشرِّ»؛ كما أنَّ كافة المصادر الدينية والتربوية والتاريخية تُشير إلى يوم آت يُزيل الشرَّ ويبسط الخير، هذا «التفاؤل» نظرية بحثٌ تُبشِّر الإنسان بالخيرِ ومُفعم الأمل .

لقد علّم الأنبياءُ الناس واستناداً إلى ما أرسلوا به ومما علموا الناس عليه كيف يكبح ابن آدم شرَّ الذنوب، كما أنَّ الإنسان حرٌّ في اعتقاده [إنَّا أهديناُ السبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كفورا] فهو حرٌّ باعتقاده باللَّهِ سبحانه وتعالى وحرٌّ بخلع «الشرِّ» من كيانه وقلبه، وهذا «تفاؤل» تطبيقي، وعلى هذا المنوال يتضاءلُ الشرفي عالماً الراهن.

وعلى أيِّ حالٍ نستنبط من هذا البحث، إنَّ الخيام كان متفائلاً في رؤياه وآرائه الفلسفية، لذا يجب البحث عن تشاؤمِهِ وكآبته في مجالات وحيزات أخرى.

استناداً إلى أبحاث علم النفس يمكننا أن نُعزي عُقدة الحقارة والخنوع والضيعة في بعض الأشخاص إلى «التشاؤم»، ومن الممكن أن نعتبر أبا العلاء المعري ذلك الشاعر الضريع ذا العاطفة المرهفة والإحساس الرقيق مصداقاً لهذا الإدعاء، ولكن هذا الأمر لا يمكن أن نعزیه إلى عمر الخيام وبهذه السهولة لأن الخيام كان فيلسوفاً وعالمًا مشهوراً ميسور الحال، كما كان يتقاضى عن خدماته العلمية مبالغ طائلة^{١٥}.

وإذا عجز البحث والتحقيق عن إيجاد سبب شخصي أدى إلى «تشاؤم» الخيام، يجب الاعتراف بأنَّ هذا العالم الكبير عاصر فترة سادتها الفتن والانتفاضات والخناقات والبلبلية والثورات والتمرد والشغب والإضطراب حيث أشارت إلى هذه الحوادث كافة كتب التاريخ، ومن المؤكد أن حزنه وشجنه وكآبته وتأسفه العميق كان بسبب الحالة الاجتماعية القلقة والفلتان الأمني السائد بايران في عصره .

كان عمر الخيام يعيش في العصر السلجوقي، وهؤلاء قوم من الأتراك نزحوا إلى ايران، وقد تمكّنوا في عصر سلطنة ملكشاه السلجوقي وخاصة زمن الوزير المقتدر الخواجه نظام الملك أن يسيطروا على قسم كبير من ايران، وفي تلك الآونة وفي زمن السلطان ملكشاه عُيّن عمر الخيام ناظرًا لـ «زيج ملكشاهي» في مرصد اصفهان، لم يَدُم هذا الأمر طويلاً، حيث صار الوزير الخواجه نظام الملك شافعي المذهب

15. M. Fouladvand, "La révolte Omar Khayyamienne", *Journal de Teheran*, 15 fevrier 1976, p. 5

[حيث نقل عن الشاعر الايراني الخاقاني المشهور أنَّ معاشه عشره آلاف دينار]

الحكيم عُمر الخيام، فيلسوف مجهول ٢٩٣

مدافعاً عن مذهب الأشاعرة، وقرّر تنحية الفرقة الإسماعيلية والتنكيل بهم .
أما الفرقة الإسماعيلية التي يرأسها حسن الصباح لم تكن مكتوفة الأيدي، حيث كانت مستقرّة في قلعة «الموت» المعروفة بـ «وَكْرَ الصَّقْرِ»^{١٦}، وكان حسن الصباح يرسل الفدائيين إلى منطقة نفوذ الخليفة العباسي المتراصة الأطراف، وكان أبناء هذه الفرقة لا يتوانون من قتل وإبادة من يُخالفهم^{١٧}.

في سنة ٤٨٥ قُتِلَ الخواجة نظام الملك، وأعقب هذه الحادثة سلسلة من الإغتيالات وسادت الفوضى وعدم الاستقرار. وبعد مدّة قصيرة من قتل نظام الملك مات السلطان ملك شاه، ثم أعقبه اولاده وجلسوا على عرش السلطنة على التوالي، وهم : بركيارق، السلطان محمد، والسلطان سنجر.

وفي عصر السلطان سنجر عمّ إيران الإسلامية الفوضى العارمة وعدم الاستقرار الأمني، وكان عصر هذا السلطان قد أحلّ الفاجعة والنكبة في إيران وساد الفساد الإداري وعم الفقر والجهل والمرض كما اشتهر السلطان سنجر بالفساد والإنحطاط الخُلقي والجناية والفسق والفجور وكان كثير اللهو واللعب، كما كان يستغل مقامه ومكانته الاجتماعية في تحقيق مآربه الشخصية وشهواته الروحية والنفسية، وكانت نتائج أعماله أن خوت خزانة الدولة بعد أن كانت في عصر حكومة والده مليئة بالذهب والفضة.

ومن أجل ارضاء عرائزه قرر «سنجر» إضافة الضرائب المستوفاة من فقراء الشعب وكلما زادت الشهوات زادت الضرائب المفروضة على الطبقات الفقيرة والمستضعفين، وقد تأسى بالسلطان حاشيته وعمّ الفساد والرشوة وسوء الإدارة حتى وصل إلى أقصى المدن النائية وكافة القرى والقصبات وشمل الظلم كافة طبقات الشعب بشيبتهم وشبانهم ورجالهم ونسائهم وقد وصل التعدي والإجحاف والإضطهاد والجور والإختناق وفرض السلطة والاستبداد والتضييق إلى درجة شملت امرأة عجوز لا حول لها ولا قوّة، فرفعت رأسها إلى السماء ونادت :
«أيها الحاكم (الملك) لمّ نشاهد لعدلك أثراً، ومن أجلك تُعاني في كلّ حولٍ هذا

١٦. حصنٌ منيع في أعالي قمم جبال البرز شمال غربي مدينة «قزوین» بایران، كانت قلعة يسكنها الإسماعيلية.

17. F. Jabre, *Erreur et délivrance d'al-Ghazzali*, traduction française avec introduction et note, Beyrouth 1962, p. 14.

الضرر والخسارة والوبال ووخامة الحال، سحقَت الناس والعوائل و هلكَت الفقراء، وصادرت مخازن غلّة المزارعين البؤساء، ولم يُترك فيها إلا دموع الأطفال وعويل النساء»^{١٨}.

ولم تكن هذه المرأة الصوت المعترض الأول بل هناك حناجرٌ خنقتها جلاوزة الشاه وأصواتٌ والشقّ قطعها جواسيسُ البلاط ورجالُ الأمن، وقد تكانفت أيدي هؤلاء العملاء من أجل سلب الابتسامة، وقتل القناعة، وخنق الرضاية، واخراس المعترض ، وإيادة المحتج والجسور. وكان قسطاس عدل الحكومة يحمل بكفته الأولي فقر الفقراء ومسكنة المساكين، وحاجة المحتاجين، و جهل الجهلاء، ومرض المرضى، وكلُّ يدعو اين حقّي فلا من مجيب، ولا أذن صاغية تسمع هذه الضجة و تلك الجعجعة ولا عين مسؤول تتوجه الى مشاكل و معاناة هؤلاء، اماكفة القسطاس الأخرى فقد غصّت بخلاعة ودعارة ومجون ابناء الوزراء والأمراء والحكام. ومن شواهد و بينات تلك الأيام أنّ «الحانات ومراكز الفحشاء والدعارة والفسق والفجور وانواع الفساد والرذيلة والنزوات المحرّمة شرعاً، كانت مزدهرة رائجة متداولة مشرقة في تلك البرهة»^{١٩}.

إنّ السلطان سنجر منح اعداء ايران الأجناب فرصة حيثُ شنَّ «الغز الترك»^{٢٠}. حملة على ايران في ذلك الأوان، كما هجم على ايران أيضاً قبيلة من المغول تعرف بـ «قره ختائي».

كانت الانقلابات المحلية والمنافسة بين كبار قادة القوات المسلحة من أجل اكتساب السلطنة جعل الامبراطورية الايرانية الكبرى مضطربة قلقة يسود الفقر فيها كافة ابناء الشعب . و عندما رأى العالم المشهور محمد الغزالي تعاسة و فقر الناس والحالة السائدة في ايران آنذاك ، كتب رسالة الى أحد وزراء سنجر يطلب العطف

١٨. نظم كلمات هذه الاعتراضات شعراً الشاعر الايراني المعروف نظامي و على من يرغب ، مراجعتها في ديوانه.

19. Ravandi, *Repos des cœurs*, dans *Anthologie persane* par H. Massé, paris 1950, p. 10, voir également: *Tableaux de Sultan Sandjar*, traduction française par Ch, Schefer, paris 1886.

٢٠. الغزّ، أو «الأوغوز» قبيلة تركية. رحلوا من اواسط آسيا نحو الغرب منذ القرن التاسع الميلادي، منهم والد أحمد بن طولون وأسّس أحمد هذا الدولة الطولونية بمصر بنى في القاهرة جامعاً لا يزال معروفاً باسمه الى يومنا هذا.

والرحمة للمسلمين المظلومين الذين طفق صبرهم وبلغت القلوب الحناجر^{٢١}.
كان الغزالي على حق، لأنَّ الشقاء والتعاسة والبؤس والمسكنة والبلاء أصاب كلَّ
ابناء المجتمع من أقصى البلاد الى أديانها، ولهذا نرى أهل الحجى واصحاب النهى
وحملة الأفكار النيّرة والإحساس المرهف والشعراء أمثال الخيام أكثر الناس تأثراً
بهذه البلية التي حلّت بالبلاد، ومن المحتمل أنَّ المؤرخ البيهقي قد وصف الخيام
بالشاعر الغاضب الساخط الفظفاظ الشرس الشكس، يبخل على الناس بعلمه، و
غرب عن ذهن البيهقي أن الحياة العلمية في قطر ساد الهرج والفوضى والعناد
والحقْد والحسد والخبث والدَّجَل، أمرٌ مستحيلٌ. وقد أشار الخيام الى هذا حيث
ذكر في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة» ما نصُّهُ :

«فإننا قد مُنينا بانقراض أهل العلم، إلا عصابة قليبي العدد كثيري المحن، همهم
افتراض غفلات الزمان ليتفرَّغوا في أثنائها الى تحقيق وإيقان علم، واكثر المتشبهين
بالحكماء في زماننا هذا يلبسون الحقَّ بالباطل، ولا يتجاوزون حدَّ التدليس والتراخي
بالمعرفة، ولا ينفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم إلا في اغراض بدينية خسيصة،
وإن شاهدوا إنساناً معنياً بطلب الحقِّ وإثار الصدق، مجتهداً في رفض الباطل والزور
وترك المرآة والخداع، استخفوه وسخروا منه، والله المستعان على كلِّ حال واليه
المفرع»^{٢٢}.

وكما ذكر الخيام ان الهرج والفوضى والإفلات الأمني قد عمَّ كافة ارجاء القطر،
واستفحل الغد المجهول المؤدي الى التهاون بحق الشعب واستصغار الناس، وكانت
الحضارة من الأيام الأولى قد فقدت أهم مقوماتها (أي : العدالة)، والكُلُّ في دوامة
حيث لا قانون، ولا حرية، ولا وطنية، كلُّ شيء ذهب ومضى ولا علاج لهذا الداء.
كما زاد الطين بلة هجوم الاتراك العزَّ وهم قوم غلبت عليهم الخشونة و سوء
الخُلُق و رداءة الطبع، اضافة الى البطالة والأبالية المنتشرة بين متصوفة تلك المنطقة،
وقد أدَّى كلُّ ذلك الى الضعف والإنحطاط، ولم يبق لايران سوى مفاخر الآباء
والأجداد حيث سيطر هذا الحديث والمفاخرة على كافة المجالس والمجتمعات .

21 الغزالي، المكاتب، باعتناء عباس اقبال، طهران، ١٣٣٣ هـ. ش، ص ٥٩

22. Omar Khayy am, *Traite d'algebre*, texte établie et la traduction française par R. Rashed dans R. Rashed et B. Vahabzadeh, *Al-Khayyam Mathématicien*, paris, 1999, p . 118.

كما فقد النمو الثقافي والتربوي مكانته ولم يبق على ساحة التعليم والدراسة سوى دراسة الفلسفة التي كانت هواية مفكري تلك البرهة، وفلاسفة ذلك الزمن [إن أمكننا أن نسميهم فلاسفة] كانوا في دوامة، حيث أجبرهم المجتمع أن يسايروا أخلاق وطبائع أبناء الشعب ويندفعوا مع مسيرة الإنحطاط الجارفة، وقد انحدر هؤلاء الفلاسفة نتيجة الإنحطاط الشعبي السائد آنذاك من ذروة الأفكار الميتافيزيقية إلى الحضيض، حيث انصرفوا من البحث عن طبيعة الموجودات وأسباب حدوثهاو... إلى الأعمال الروتينية العادية ووجهوا عزمهم إلى الاستمتاع واللذة وهناء العيش. كان عمرالخيام في أيام حكومة السلطان ملكشاه يعمل برغبة دائبة واشتياق و رغبة، ويأمل الحصول على رغيد العيش و سعادة الحياة ليضع أول خطواته على طريق العز والسعادة وصفاء العيش والنعيم، ثم استفاق بسرعة من احلام اليقظة و عرف أن هذا كله من اوهام الخيال ولا علاقة له بواقع الحال، ولهذا هجر كافة الأنشطة العلمية التي بدأها، وسد الأبواب بوجه العلماء الراغبين بزيارته والطلبة المشتاقين إلى الدراسة لديه. إن هذه الاعمال والسلوكيات قد رفعت الستائر امام المعاصرين له وانبرت الأقلام في تدوين اتهامه بالبخل والتقتير في نشر العلوم والتعليم كما فعل المؤرخ المشهور «البيهقي»^{٢٣}.

والواقع أن هذا الإمتناع يَرْتَبِطُ وثيقاً بالأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك الفترة حيث أن الكذب والظلم قد اختلطت باليأس والشر والفقر، كما طغى الانتم والخبيثة والبغي والبهتان والموبقات على الناس حتى وصل إلى درجة يعتقد فيها الفيلسوف و بعميق احساسه ومشاعره أنه وصل إلى حالة لا يمكنه تحملها ولا يتمكن له أن يساير أي أنيس ومصاحب وجليس ولا العيش مع أي موافق ومُتَّفِقٍ ومنسجم ومُتَّحِدٍ، ولا الزمالة مع أي صديق أو رفيق، أو صاحب، وكان الشرُّ والفسادُ هما المسيطران على البلاد والعباد، واصبحت الوحدة والخلوَّة والعزلة الأنيس الوحيد والنديم الفريد للعلماء والحكماء والأدباء.

في ذلك الحين كان كلُّ شيء غارق في هاوية الموت والتلف والإبادة والبوار والإضمحلال والإنهدام والدَّمَار، والفلاسفة بحالة مصداقها قول أبي العلاء المعري عند خلافه مع الزمخشري النحوي المفسر حيث قال :

الحكيم عُمر الخيام، فيلسوف مجهول ٢٩٧

نَبِيٌّ مِنَ الْغُرَبَاءِ لَيْسَ عَلَيَّ شَرَعٌ
يُخَبِّرُنَا أَنَّ الشُّعُوبَ إِلَى صُدْعٍ^{٢٤}

مما لا شكَّ فيه هذا الشعر يحوي بعض المبالغة، ولكنه يحكي مشاهدات الخيام في مسقط رأسه «نيشابور» ويؤيد آراءه .
إن ما يُشاهد على مسرح الحياة في هذه المساكن والديار لا يتعدى كونه شراب ونزوات سلطة زائلة.

أمَّا الأبنية والعمارات والمنشآت القائمة لا تحكى لنا غابر الأيام لعدم قدمها وحدائث زمنها، ولأن الحرائق والزلازل كانت واجبة كي تجدد المنشآت والعمارات والقلاع والحصون لتحل محل الأبنية التي أكل الدهر عليها وشرب .

والحقيقة أنَّ «نيشابور» تعني ملتقى ومزار الماضي المنصرم والأيام الخوالي والذكريات الخالدة. وعلى الرغم من مرور زمان بعيد نوعاً ما، بقت هذه المدينة مركزاً لحكومة السلالة الطاهرية [طاهر بن الحسين المتوفى سنة ٢٠٧هـ / ٨٢٢م من كبار قواد المأمون العباسي ومؤسس الدولة الطاهرية وأولاده الذين خلفوه في حكم خراسان طوال قرن تقريباً]، والدولة الصفارية [التي أسسها على انقراض للدولة الطاهرية (المشار إليها قبل قليل) يعقوب بن ليث الصفار المتوفى سنة ٢٦٤هـ وخلفه أخوه عمرو بن الليث الذي أسروقتل سنة ١٨٩هـ / ٩٠٣ بيد السامانيين] ٢٥.

في تلك الأيام كانت «نيشابور» أو «نيسابور» مركزاً للفنون والآداب والذوق ورقة الطبع، وهي كالورد رقة وقصر زمان يظهر بسرعة ويذبل ويذوي ويضمربسرعة أيضاً. ماذا بقي من عظمة وجمال تلك العاصمة القديمة العريقة (التي ضمت بين ظهرانيها مليوناً ونصف مليون نسمة)، اين تلك الكراديس البشرية التي كانت تملأ البيوت والمنازل والسرايات والشوارع والأزقة والطرقات، لم يبق منها سوى السكوت المرهب والهدوء المرعب، اين صيحات الفرح والسرور ونغمات الطرب والحبور، واین تلك القصور^{٢٦}.

٢٤. فروزانفر، بديع الزمان، «قديم ترین اطلاع درباره خيام = أقدم الأخبار عن الخيام»، في مجموعة مقالات و اشعار فروزانفر، طهران ١٣٥١ هـ. ش، ص ٢٦٧.

٢٥. محمد علي اسلامی ندوشن، «نيشابوروالخيام»، في مجموعة مقالات و اشعار لأستاذ فروزان فر، طهران ١٣٥١ هـ. ش، ص ٢٦٧.

٢٦. أَفَقٌ، وَخَرَّتْ لَهُ الْمُلُوكُ سُجُودًا

٢٦. أَيْنَ ذَاكَ الْفَضْرِ الَّذِي رَاحَ أَى

این تلك المفاخر، مَنْ أزال تلك الجهود والكدح، هل آثار الإنسان تصبح عرضةً للزوال، ومجموع الناس تذهب إلى دار الفناء وبهذا الشكل؟! أتبأذ الامبراطوريات و الملل والنحل بهذه الطريقة؟!^{٢٧}

رغم أنَّ الإنسان أشرف المخلوقات لم يُستثنَ من هذا المصير، فمن يوم ولادته ومثل كافة المخلوقات خلق ليعمل ويجتهد ويبني وَيُعَمَّر، ثُمَّ يَفْتَنِي، فحياته نقطة في فضاء ولحظة في مسير الفناء وإنَّ كُلَّ نَفْسٍ تموتُ باذن الله حيثُ إذا جاءَ أَجَلُهُم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، وهنا يجدُ الفيلسوفُ نفسه في تأملٍ ووعْدٍ غير مألوفٍ وغير معروفٍ إلا وهي فكرة «الموت»، وبهذا الشكل من التأمل والتفكير والتدبُّر يجعل مظاهر الحياة الجميلة بالأزهار والورود والرياحين والقذاح والنباتات النضرة والروابي والسهول والجنائن والبساتين تذكره بالموت وترسم له نياسم الغناء، والأزهار والورود ستذبل وتتفردو تسقط على الأرض مهملة، وهؤلاء العُشَّاق وأهل الغرام سيصبحون تُراباً تُصنع منه الجرار والكوز والحباب والأواني والقوارير^{٢٧}.

لِمَ انْطَفَأَت ابتسامةُ الربيع؟ لم حزمَ قرطاسهُ الوردِي، والعنادل والبلابل تُغردُ على أغصان الأزهار، من أين أتى والى أين يذهب؟ ليس يعلم ذلك أحدًا!! الحياة جميلة، وممَّا يؤسِف عليه قصر أيامها ووجازة هوائها وسعادتها، وما أشبه الإنسان فيها بسَبَّاحٍ يَسْبِغُ في محيط متلاطم الامواج يتقلب بين الأمواج العاتية وبعد مدة وجيزة يغرق تحت الماء. ما الحكمة من هذا المجيء وذاك الذهاب، نحن لا نعرف من أين ولكننا أتينا، وَسَنَرَحَلُ إنَّ شئنا بذاك أو أبينا^{٢٨}.

إذا تَرَيْتُمُ بالذهب والجواهر والدُّر، وبعد كُلِّ السعي المتواصل والجُهد المتعب، والعزم الصادق، ما الحاصل؟! ستأتي الساعة التي اترك فيها هناء الدنيا ولذة العيش،

أَبِنَ مَنْ صَيَّرُوا الْمُلُوكَ عَيْبًا

→ هَتَفَ الْوَزُقُ فِي دُزَاهِ بُنَادِي

محمد علي فولادوند، رباعيات الخيام، مع الترجمة الفرنسية، طهران ١٩٦٥م، ص ٣.

٢٧. مقتبس من الرباعية التالية:

والهأ في صدغ طيبي أغيد

كان هذا الكور منلي عاشقاً

طوقت جند حبيب أجيد

وأرى عروته كانت يداً

G. Lazard, "Omar Khayyam poète," texte de la Conference au Colloque International sur Omar Khayyam à l'UNESCO, paris, septembre 1999.

٢٨. محمد مهدي فولادوند، رباعيات الخيام، المصدر السابق، ص ٣، و قصيدة «لست أدري لإيليا أبي

ماضي».

وأرقد في رَمْسٍ مُظْلِمٍ، فما ربحت وانتفعت وكسبت من هذه الدنيا؟! إذا «لِمَ خُلِقْنَا؟»^{٢٩}.

نعم إنَّ وُلُوجَ النهار بالليل وتناوبهما، قرينة وتماثل على تناوب الموت والحياة وهذا ظاهر زاهٍ في أشعارِ عمر الخيام .

الليل أيضاً شبيه الموت يحلُّ محلَّ الضياء والتألق والاشراق، ويحمل في طياته الاسرار ويحوي الهمَّ والأتراح، على هذا يُعتبر الموت أحلك ديجور خندس عكرم غبس، والظلام صفة ليل تزيد من مفهوم وحشة الليل، وكلما أرادوا نفي الاشراق والنور والرَّهْو والإصباح والوهج نسبوه إلى الليل والظلام، وكذا الموت فهو كضلام الليل يأخذ كُلَّ وَهَاجِ زَاهٍ، وتبقى علومنا وفلسفتنا مكتوفة الأيدي، وقد حاول العلماء الاستقصاء والتحري في كنه هذا اللغز والمعضلة، وعجزوا أن يُقدِّموا أي نتيجة منطقية لتحرياتهم «لَمْ يَكشِفُوا حَلْكَ الدَّجِي بَلْ دَوَّثُوا اسْطُورَةَ»، وقدَّموا لنا أساطيرو خرافات، حيث وقع الواحد بعد الآخر أسير مخالب خرافاتهم^{٣٠}. رَغَمَ أَنَّ الموتَ لا يُحَدِّدُ بالتوضيحات العلمية والفلسفية لكونه خارج حيز نطاقها، إلا أنَّ الأدیان السماویة قد أوضحت لنا المقصود بطريقتها الخاصة، وكان الخيام قد أخرج نَفْسَهُ من هذا الصراع الروحي تحت حماية الظلِّ المذهبي للموضوع.

وإذا اعتبرنا الدين مصدر الأمر يتبين لنا أنَّ الإنسان خالداً جاء من دُنْيا الأزل وبعد هذه الحياة الفانية سيعود إلى عالم الأبد، وما الحياة الدُّنيا إلا متاع وإنَّ الآخرة هي دار القرار، وإنَّ اغراء الشيطان وضعف الانسان من جهة وانذار الخالق الجبار من جهة أُخرى والهجمات عالم الغيب تؤدي إلى جدِّ واجتهاد ابن آدم اضافة إلى ارادته الإنسانية، وهذا لا يتعارض مع حريته واستقلاليته وشعوره بالمسؤولية، وهذا يؤدي إلى نجاته من التصدع والعذاب والعناء. ويسوقه صوب السعادة الأبدية، وهذا الأمر مرهون بالتغلب على النفس الأمارة والشهوات المبتذلة والغرائز الدنيئة والطبائع المنحطَّة. بناءً على هذا كلما سلك ابنُ آدم طريق الحقيقة، يؤدي دوره الدينوي بشكل حسنٍ جيدٍ متميِّزٍ، كما يكون الموت في نظره حياة خالدة يتخلص بواسطته

٢٩. المصدر السابق، ص ٣ أيضاً.

مَا بَيْنَ صَخِيهِمْ سِرَاجَ النَّادِي
اسْطُورَةَ، ثُمَّ انْتَثُوا بِرُقَادِ

٣٠. إِنَّ الْأَلَى بَلَّغُوا الْكَمَالَ وَاسْتَبَحُوا
لَمْ يَكشِفُوا حَلْكَ الدَّجِي بَلْ حَكُّوا

من البدن الترابي والحياة الفانية ليرتقي الى أعلى الدرجات الحقيقية، نعم إذا لم تجفّ التّواة فلا يمكنها أن تكون دوحه.

إنّ هذا التّمعّن والتبصّر قد منح عمرالخيام ملكةً حقيقيةً أعدته للدخول الى الحياة الأخرى، والى كيف يسعد في دنياه بحياة بهيجة يلتذ بها بما أحلّه الباري عزّ وجلّ. وقد صور الخيام هذه الحياة في رباعياته بالخمرة، حيث جسّم لنا لذة السكر الرّوحي، واذا لم يتمكن الانسان أن يسعد سعادة معنوية فمهما ما مُنح من الطيبات فسيتقى سيء الحظ تعيساً شقيماً مفجوعاً نكداً. وذلك لأنّ من فقد معنوياته لا يمكن استدراكها وتعويضها بكافة المظاهر المادية المتيسّرة في عالمنا الراهن.

وقبل أن أبدأ بشرح مصدر وأصل ومنشأ «رمزية الشّراب» أرغب أن أُبين أن [داوورد فيتز جرالدي] الذي ترجم رباعيات الخيام الى الانجليزية قد مزج رمزية شراب الخيام بالمعاني اللغوية البحتة الواقعية للخمر، حيث قال: «إنّ الشراب الذي إحتساه حافظ الشيرازي ونظم في مدحه القصائد الرنّانة فليكن ما يكن، ولكن الشراب الذي شربه الخيام فهو ابنة العنقود وخمرة الكرم»^{٣١}.

لم يُبين لنا هذا الكاتب الإنجليزي على أي مصدر أو مصنف استند في نسبة شرب الخمرة الى عالم اسلامي^{٣٢} مشهور كعمر الخيام، ولم يكتف بهذا بل نسب له تهمة أخرى أدهى وأمرّ من الأولى ألا وهي الدعاية للخمرة واشاعة شربها، وكما أشرنا سابقاً وبشكل مختصر أنّ الخيام لم يذكر الخمرة إلا قرنّها بالموت والفناء، كي يثير وجدان السامع ويأخذ بيده الى الفضيلة والخير والكمال المعنوي، كما أنّ الشراب المحرم والمبتذل لا يتوافق مع ما أشار اليه الخيام، اضافة الى أنّ الاسلام قد حرّم الخمرة لأنها رجس من عمل الشيطان توقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، لذا نرى المستشرق الانجليزي قد ذهب في آرائه مسلماً ملتويّاً وفسر رباعيات الخيام على معاني الكلمات وترك الجانب الأدبي والمذهبي والمعنوي جانباً و حمل اقواله على محمل النزعات الرمزية الأخلاقية أو الصوفية.

نعم إن اصطلاح «مي» أو «شراب» استعمله المتصوفة في ايران قبل عصر

31. A.L.M. Nicolas, *La Divinité et le vin chez les poètes Persans*, paris 1897, p. 8.

٣٢. أحد ألقاب عمرالخيام (إمام خراسان) بمعنى رجل دين كبير لخراسان وكانوا يطلقون كلمة إمام على كبار علماء الدين مثل أبي حامد الغزالي.

الحكيم عمر الخيام، فيلسوف مجهول ٣٠١

عمر الخيام و ارادوا به السكر الشاعري المعنوي الصوفي، حيث لا تزال هذه السجية الشاعرية سائدة في الآداب الفارسية الى يومنا هذا، ويمكنك أن تلاحظ أوج سموها و ذروة علوها و منتهى غايتها عارية واضحة في شعر سيد الشعراء حافظ الشيرازي.

والحقيقة أن عمر الخيام قد عمل بهذه السجية تأسيا بالأفكار الصوفية السائدة في ذلك العصر، لهذا نرى المتصوفة قد رأوا في بعض أشعار عمر الخيام ما يصبون اليه في تطلعاتهم وأشواقهم، فإتخذوها أنشودة يرددونها في حلقات ذكرهم وتجمعاتهم^{٣٣}. والواقع أن المتصوفة يعتقدون أن الانسان في هذه الدنيا غريب، ونراه يبحث ويتحرى عن «اللامتناهي»، وهذا لا مصداقية له في الحياة المادية، نعم هو يرغب في سعادة تعجز هذه الكرة الترابية أن تهيأها له، وهنا مركز ومحط اضطرابه وقلقه، والواسطة الوحيدة المنقذة له من هذا الاضطراب والقلق هو عالم الغيب و التقرب الى الغفور الرحمن الواحد الصمد والإعتصام بحبل الله، ولمسايرة هذا الإعتقاد قال الشاعر الصوفي الكبير حافظ الشيرازي طالباً من ساقى «ماء الحياة» قدحاً يرويه (أي أن يروى قلبه الضمان كنه الحقيقة)^{٣٤}:

ساقى به نور باده بر افروز جام ما مطرب بكوكه كار جهان شد به كام ما
ما در پياله عكس رخ يار ديدهايم أى بى خبر ز لذت شرب مدام ما^{٣٥}.

[وقد ترجم كاتب هذه السطور (قيس آل قيس) البيتين المذكورين الى العربية شعراً:

نُورٌ بِبِنْتِ الكَرَمِ كَأْسٌ مُدَامِيًا يَا سَاقِ وَالنَّائِي وَالشَّادِي يُودِدُ نُصْرَتِي وَرَفَاقِي
قَدْ لَاحَ وَجْهُ مُتَيْبِي فِي حُمْرَتِي يَا عَافِلًا لَا تُزْنَأِي مَا أَرْتَأِي فِي نُشُوتِي وَوَنَاقِي]

و على هذا المنوال قال عمر الخيام في رباعياته:

يَا صَنَمِي نَمُّ وَأَتْنِي مُعْجَلًا وَحُلٌّ فِي حُسْنِكَ لِي مَا أَشْكَلَا
وَهَاتِنِي كَوْزَ المُدَامِ قَبْلَ أَنْ يُصْنَعَ مِنْ رُفَاتِنَا كَوْزَ الطَّلَا^{٣٦}

٣٣. ابن الفظفي، تاريخ الحكماء، طبعة لايزك، ١٩٠٣م، ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

34. A.L M. Nicolas, *La divinité et le vin ...*, op. cit. p. 25.

35. G. Lazard, "Le langage symbolique du Ghazal" dans *colloque international sur la poesi de Haféz*, Rome 1978, pp. 62-63.

٣٦. رباعيات الخيام، ترجمة احمد الصافي النجفي.

من أجل الوصول الى هذه النشوة الروحية يجب أن نصقل القلب من الشوائب والرواسب كي يتبع من مصادره الصافية زلال المعارف، ومما لا شك فيه أن الالتزام في الحياة الدنوية واجب، ويجب أن لا نتعاس عن العمل الدؤوب كي لا نقع في دوامة الغمّ والهّم والكآبة والشّجا والقلق والإضطراب والهواجس، وتصدق الحالة المشار اليها في الرجال يحملون دوامة المشاكل الماضية، وإبهامات ووخامة عنف وشدائد المضار الآتية. والخيام يعتقد أن السيطرة على المشاكل المشار اليها يكمن في كبح رغبات و ميول وتطلعات الإنسان المستقبلية، ويجب على الإنسان أن يفتنم لذات الزمن الراهن، لأن الإنسان لا يلد الى مرّة واحدة، وأنّ غداً مجهول الحوادث والنائبات.

و لكن شاعرنا ترك الدار الفانية ولم يتمكن من تسخيرها لما اراد:

أَفِرُّ خَفِيفَ الظِّلِّ هَذَا السُّحْرُ	نَادَى مِنَ الغَيْبِ غَفَاةَ البُشْرِ
هُبُوا آمِلًا وَكَاسِ المُنَى	قَبْلَ أَنْ تَمَلَأَ كَأْسَ العُمُرِ كَفَّ القَدْرِ
عَدَّ بِظَهْرِ الغَيْبِ، وَاليَوْمِ لِي	وَكَمْ يُخَيِّبُ الظَّنُّ بِالمُقْبِلِ
وَلَسْتُ بِالمَقَابِلِ حَتَّى أَرَى	جَمَالَ دُنْيَايَ وَلَا أُجْتَلِي
لَا تُسْفِلِ البَالُ بِمَاضِي الزَّمَانِ	وَلَا بَاتَسِي العَيْشِ قَبْلَ الأَوَانِ
وَاعْتَمَّ مِنَ الحَاضِرِ لِدَاتِهِ	فَلَيْسَ مِنْ طَنِعِ اللَيْالي الأَمَانِ ^{٣٧}

من أجل الوصول الى السعادة والهناء والسؤدد يجب على ابن آدم عدم الإكتفاء بابعاد النزوات الداخلية والأهواء النفسانية والهموم العاطفية، بل يجب عليه النضال ضد الظالمين والجائرين والغاصبين المسببين لآلام ومشقة وعناء ومضض ونكبات البشرية.

وبما أن منشأ ومصدر النشوة والغائلة ابناء البشر أنفسهم، لذا وجب على الكل ترك البكاء والنحيب والتضرع والنواح والوقوف بوجه اشباه الرجال والثورة على مسيبي الظلم والعدوان والتعسف، عندها ترى عمر الخيام نائراً مناضلاً مكافحاً ضد الخنوع والخشوع لسراق المناصب والمتخاذلين و سراة الخيانة والتي عاناها قبل عقود كثيرة، فهذا الشاعر المشهور الشيخ فريد الدين العطار كوكب شعراء الصوفية في زمانه ذكر عمر الخيام في كتابه الهي نامه بعد ثمانين سنة من وفاته ووجه اليه انتقادات لاذعة

الحكيم عُمر الخيام، فيلسوف مجهول ٣٠٣

وقال إِنَّهُ غير مُتَزِم (أى غير مُتَشَرِّع) ومهما كانت الاسباب المؤدّية الى هذا الانتقاد إلا أنّنا نشاهدُ المؤرّخين قد اعتبروا عمر الخيام من المناوئين للسلاجقة حيث مدّ يد العون لأعدائهم ومخالفهم، حتى اتهموه بأنّه رفيق نضال الاسماعيلية. وقد ذهب المستشرق الجيكي «ريبكا - Ripka» الى أبعد من هذا حيث جعل عمر الخيام العقل المدبر للفرقة الاسماعيلية^{٣٨}.

و على أيّ حالٍ فإنّ الأمر الواقعي المؤكد، هو أنّ الخيام كان من المناهضين للفساد والإنحطاط والرذيلة السائدة في زمانه متمنياً تحقّق الأهداف الوطنية للوصول الى الوفاق والسكينة والسلام .

رَبِيَّةُ الخِيَامِ

قبل الدخول في خضم الموضوع يجب الإشارة الى أنّ الخيام لم يكن عُرضة للشك والإرتياب والتردّد في أمر واجب الوجود^{٣٩} أو العالم الخارجي^{٤٠} أو العدالة، ولكن ارتبابه ينحصر فقط في النظريات والفرضيات السطحية لبعض الفلاسفة الذين يزعمون بأنّ كافة المسائل والمشاكل الانسانية تُحلّ بواسطة العقل، وكان يرغب أن يُحطّم هذه الافكار الساذجة التي يُروّجها هؤلاء الفلاسفة. نعم إنّ الخيام من العلماء القلّة الذين يدعون بأنهم أهلّ للطغيان على النظام العلمي السائد في تلك الفترة والوقوف بوجه السيل العرم من النظريات والفرضيات الفلسفية الحاكمة على أجواء الكون في تلك الأيام. كان عالماً يتدبّر ما يترأى اليه من الأفكار الفلسفية، وكان يُقدّم الأسئلة الأساسية لنفسه ولزملائه العلماء والفلاسفة، تلك الاسئلة التي تتطرّق الى كيفية، نمط، وطريقة، وشكل، وخاصيّة خلق ابن آدم، ومقدّرات، وقسمة، ومصير، ومنية البشر.

والخيام يُسأل نفسه، من أين أتى ابن آدم؟ هذا المخلوق العجيب (على خلاف كافة الأحياء) لم يظهر أيّ استجابة أو معاكسة أو تفاعل بسيط، بل يُجدّد افكاره

38. J. Ripka, *History of Iranian Lit.*, English translation by p. Van Popt, Holland 1968, p. 193.

٣٩. ← خيام، رسالة في الكون والتكليف، النصّ العربي مع الترجمة الفارسية، باعتناء السيدة هاشمي بور فرهنك، ص ١٢ العدد ٤٠١، سنة ١٣٧٩، ص ١٤٠ حيث بين الخيام اعتقاده بالتوحيد و واجب الوجود.

٤٠. المصدر السابق، ص ١٤١.

وعلموّماته السابقة و يضيف اليها آراءً و تأملاتِهِ و تبصّرُهُ و متى شاء يتمكّن أن ينقل آراءَهُ (قسماً منها أو يكاملها) كلاًّ مكان الآخر أو اليّ من يرغب نقل المعلومات اليه. و بيت الفصيد هو أنّ الجسم و الجثة و الجسد و الهيكل و الجثمان ليس كلّ شيءٍ و ذلك لارتباط الجسم بالروح و النفس، تلك الروح التي تستقبل المشاعر و العواطف و الإحساسات و تمتلك الحزم و الإرادة و الهمة و المشيئة، المُتعطّشة الي العدل و الإنصاف و المساواة و القسط و الأمل و الرغبة و الشوق و الشهوة و البغية و المراد و الحاجة، و المتطلّعة الي الحُسن و الجمال و الوجاهة و الملاحة و الوسامة و الأناقة و الغضاضة و اللطافة و الظرافة، و عن طريق التوسل و التضرّع بالدين نبغي التقرب الي خالق الخلق و الكائنات .

و بدون معرفة الكائنات يصعب و يعسر التعرف على الإنسان لكونه جزءاً من هذه الكائنات. و ذلك لأنّ الجزء قسمٌ من الكلّ. و من أجل معرفة سر وجود الانسان و كنه كينونته يجب علينا أن نعرف كلّ العالم، و من معرفة العالم نتمكّن من معرفة «هل العالم محدود متناه»، و في هذه الحالة، حدود كلّ هذا المدّ و الجزر و النور و البهاء و الرفعة و الرونق و السموّ و المجد و العظمة و السطوة و الفخامة و البهجة و الروعة و الحسن و الحنان من أين تبدأ؟ و اين تنتهى...!!؟

و السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو، هلّ فيما وراء المجرة و النجوم عوالم أخرى؟! و من أجل هذا السؤال يستفهم الخيام و يستفسر من الفلاسفة و العلماء القدماء، و لكن هؤلاء بدل أن ينقدوه من هذه الدوامة المحيرة يقدمون له اصطلاحات حاوية مثل: الذرة، الفراغ المادّة، الصورة و ما شابه ذلك من الإصطلاحات المبهمة التي أغرقتهم دوامتها. و لكن ما يضرّجه و يؤذيه و يُكدره و يقف حائلاً أمامه هو اختلاف الفلاسفة في نظرياتهم و تباين آرائهم حتى في القضايا المتشابهة، و حتى عندما يسعى أحدهم لعرض فرضية ما و يقدم لإثباتها و البرهنة على صحتها الدلائل المنطقية، ينهض آخر و يسعى لإبطالها، أو بعبارة أخرى يُزلزلُ كيان وجوده. فإذا كانت الحقيقة واحدة فمن أين جاءت و ظهرت هذه الاختلافات و الرؤى و النظريات المختلفة المتنوعة. أليس مشاهدات الإنسان صادرة عن الحواس الخمسة؟ و هذه الحواس تعمل في جميع الأجسام بسشكل واحد، إذًا لماذا تتباين النظريات في حقيقة واحدة. و كان الخيام قد وصل الي استنباطات و استحداثات و اكتشافات فلسفية كبيرة عندما حاول

الإجابة على هذا السؤال، نعم فهو بعد الجهود العظيمة والدراسات الفلسفية العميقة توصل إلى نتيجة هي أن مصدر ومنهل ومنبع كافة الآراء والعقائد المختلفة والمتباينة ذهن الإنسان، يعكس الحقيقة وله رد فعل فعال في الإدراك والفهم والمعرفة العلمية، والذهن في أبناء البشر لم يُخلق بنموذج واحد متوازي العمل ومتساوي التفكير، بل يعكس صبغة وسحنة افكاره وتطلعاته ويقدم صورة ذهنية تعبر عما جال في مخيلته. ولهذا تكون الصورة للحقيقة الواحدة قد ظهرت إلى عالم الوجود بأشكال مختلفة ومظاهر متباينة، لا يجمعها ولا يحددها شكل واحد أو صورة مطابقة.

بناءً على هذا تكون الأشكال والصور المرسومة في اذهاننا هي من نتاج بنات افكارنا «گردون نگرى ز چشم فرسوده ماست»^{٤١}، ومن أجل ذلك وفهم ما ذهب إليه عُمر الخيام بشكل حسن، يجب الإمعان في إحدى ربايعاته، وهي تبين حالة انفعال أحد اعضاء جسمنا بعامل أو مؤثر خارجي كالعين مثلاً، نلاحظ أن العقل يكون المصدر الوحيد لايجاد وتعيين هذه الظاهرة «الحسية - النفسية»، لقد كشف الحس شيئاً أثر على الأشياء الأخرى وأوجد رد فعل فيها، ثم يأخذ هذا الإحساس والتميز والادراك صورة وشكلاً، ويكوّن وجوداً، وعندما يُعرف مصدر ومنبع هذا الامر الذي أصبح حقيقة، يكون قد أوجد بحثاً عميق المعنى ودراسة صائبة، وقد أحرزنا واستنتجنا هذه الحقيقة بوسيلة الحواس البدنية اضافة إلى العقل والذهن، ولكن من الممكن أن نخذعنا وتغالطنا احساساتنا وذلك لأنها عاجزة عن أن تُجسّم لنا هذه الإحساسات المعنوية بشكل مادي ظاهر للعيان.

إن أي اختلاف في القرب والبعد واللون والصبغة والسحنة وما شابه ذلك كفييلة أن تعرض الأشياء بعكس حقيقتها وتظهرها بليس ما هي عليه، كما أن للذهن دوره المتميز في اظهار الصورة كما سيوضح لنا الشكل المشار إليه أدناه - ولهذا فإن أغلب

٤١. هو صدر رباعية تقول:

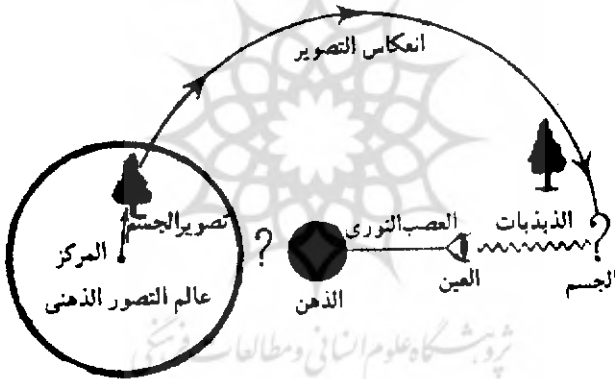
كوثر ائرى ز أشك بالوده ماست
فردوس دمی ز وقت آسوده ماست

گردون نگرى ز چشم فرسوده ماست
دوزخ شررى ز رنج بيهوده ماست
وقد ترجمها الدكتور قيس آل قيس بالشكل التالي:

قد جاء من لحظنا المضى من الكلال
من خالص الدمع والأحزان والمثقل
عن نار أحزاننا والهيم والوجل
في أرض شعب كثير الحلي والحلل

ما لآخ في الفلك الدوار من حدث
وقد ترى الكواكب الثرثار مشهدراً
وذا جحيم الوذى من قبسة صدرت
وهذه الجنة الفيحاء قد بنتت

ما في مخيلة البشر مالا حقيقة له من نظم و حركة عالم الوجود، ولكنها تصاوير باهتة عن الحقيقة. ولكن هذه التصاوير الباهتة استنشقت منها علماء الظاهر وبعض الفلاسفة رائحة الحقيقة، واعتبروها اصل الحقيقة ولب المعرفة، ولم يدعوا لأنفسهم أي مجال للشك والريبة والوسواس والتأمل والتردد، والحقيقة هي أن سعة الموضوع وامتداد بديهاته وكثرة حقائقه لا يجب أن تكون سبباً للإعتماد على حصيلة وثمره ونتاج الذهن ولكن يجب امتحان واختبار وتجريب نتاج الذهن وحصيلة اجتهاده مع إتصال وارتباط هذا النتاج والحصيلة بالحقائق الواقعية الخارجية. ومع الأسف أن كافة المدارس الفلسفية تتصف غالباً بتمسكها بالجانب العقلي وتبتعد كل البعد عن واقع وحقبة الحياة، والواجب على هذه المدارس الفلسفية أن تجعل حجر الاختبار صخرة تختبر عليها حصيلة افكارها لتحصل على النتائج الواقعية^{٤٢}.



«الذهن من عمري وعيني لحضة»

على أساس هذه النظرية أشتهر أن الخيام كان يعتبر الصراع حول «العالم مُحدث أو قديم» صراعاً باطلاً عبثاً لا طائل الصراع حول «العالم مُحدث أو قديم» صراعاً باطلاً عبثاً لا طائل فيه، لأن المختبرات لا يمكنها أن تُحلل هذا الأمر وتمنحنا النتيجة الحقيقية، وإذا كانت دلائل الفريقين منطقية تستند على أصول عقلية هل يمكن اختبارها والتأكد من درجة مصداقيتها، الجواب حتماً «لا»، ولهذا على أي قاعدة أو نظرية أو قانونٍ نستند في تأييد اعتبار أحد النظريتين؟ «والى متى تَبْحَثُ

42. JJ. Van der Leeuw, *La conquête De l'illusion*, traduit de l'anglais par J. Fourmier - Pargoire, paris 1930, p . 39.

الحكيم عمر الخيام، فيلسوف مجهول ٣٠٧

في المحدث أو ذلك القديم، يا حكيم». بناءً على ما ذكره أعلاه فإنَّ عقلنا لا يقودنا إلى حلِّ معظلة الدَّهر، لأن العالم اللامتناهي لا يمكن حصره بنزير معلومات بشرية:

كَيْفَ ذَا الْكُوْنِ مِنْ بَحْرِ الْخَفَاءِ بَدَأُ؟ وَ سِرُّهُ لَمْ يَسِنْ يَوْمًا لَدَى الْأُمَمِ
كُلُّ أَمْرِيءٍ قَالُ وَهْمًا عَنْ حَقِيقَتِهِ وَالْحَقُّ مَا فَاءَ فِيهِ وَاحِدٌ بِفَمِّ^{٤٣}

وقد سار على مسار الخيام من بعده علماء وأدباء كثيرون منهم «جان جاك روسو» العالم والكاتب الفرنسي المشهور حيث كتب في القرن الثامن عشر الميلادي رسالة إلى صديق له قال فيها:
سوفي العزيز:

نحن لا نعلم ولا نعرف شيئاً، ولا نرى أيَّ شيءٍ على حقيقة تكوينه. نحن حزمة من العميان سائبون تائهون في رحبة هذا العالم الواسع، وكلُّ واحدٍ منا رغم أنَّه لا يرى الأشياء على حقيقتها فاتَّه يصور الأشياء بشكلٍ عجيبٍ مُحيرٍ للعقول، حيث يأخذ ذلك الرسم مكاناً حقيقياً في عالمنا هذا. نعم أنَّ أفكار أي إنسان لا تُعادل ولا توازي أفكار إنسانٍ آخر، أمَّا الفلاسفة الذين يدعون معرفة الحقيقة والواقع فتكاد لا تجد اثنين منهم متفقين على طبيعة الأشياء التي يرغبون بيانها ناهيك عن أفكارهم المبعثرة المشتتة المتضاربة^{٤٤}.

ثمَّ بعد قرنين من الزمن أورد البروفسور موراي جلمان (Murray GeL-Mann) عالم الفيزياء الأمريكي الكبير عقيدة الخيام المشار إليها وبالشكل الآتي:

نعم إنَّه أطول حادث تاريخي في الحياة الشريَّة واعني به الإجهاد والمجاهدة والبحث والدراسة والتقصِّي والفطنة والفراسة في كيفية وطراز ونمط النشأة والتكوين وخلق العالم من أجل درك وفهم كيفية نتيجة الدأب والعمل وبأي أسلوب وطريقة ومنوال؟ ومن اين جاء هذا العالم؟! ما أصعب التصرُّو والتخيُّل المسيطر على أفكارنا والقائل إنَّ شردمة قليلة يسكنون هذه الكرة الصغيرة السابحة في هذا المدار الضيق تدور حول كواكب ضئيلة طفيفة في نزير من السحاب تمكنوا من كشف كُـلِّ هذا العالم وكانوا موقَّفين في عملهم^{٤٥}.

٤٣. رباعيات الخيام - ترجمة الاستاذ أحمد الصافي النجفي.

44. JJ. Rousseau, *Œuvres complètes*, tome IV, *Lettres Morales*, Lettre n.3 LapLé iade, paris 1990 p,1092.

45. H, Sadeghi, "Omar Khayyam et ses Quatrains" text d'une conférence

ثمّ إذا لم يتمكن العلم و الفلسفة من الوصول الى فهم وإدراك سرّ و خافية وطويّة العالم، إذن لا يتمكن من درك وفهم عالم الأسرار حتماً. ومن أجل معرفة «الله» جَلَّ وعلا فهناك سُبُل متعدّدة، وقد اختار عمر الخيام من هذه السُّبُل طريق الفلاسفة والمتكلّمين والإسماعيلية والصوفية. ولكن الخيام يوصي باتباع طريق الصوفية في المعرفة و يؤكد على أن تكون المعرفة قلبية أي عاطفية حنونة، وقال في هذا المضمّار:

إنّ الصوفية لم يطلبوا العلم للفكر والرؤية في المعرفة، بل لصفّت السريرة، وتهذيب الأخلاق، وإنارة النفس الناطقة من ضيقها وغيابها وكدورتها الطبيعية والبدنية، وعندما تسقط الروح في ساحة بارئها مثل جوهرة صافية براقّة لا شائبة فيها، ستأخذ حيناً في مجال الحقيقة، ومما لا شكّ فيه أنّ هذه الطريقة هي أفضل الطرق، ولا يجد العبد مثلاً أعلى، وهدفاً أسمى، وكمالاً متكاملأً أكمل، من الله الواحد الأحد، وإنّ باب الله واسعة مفتوحة على مصراعها أثناء الليل واطراف النهار، وكلّ ما يصيب الإنسان من المصائب والأحزان فهو من طباعه النفسية، فإذا رُفِعَ الحجابُ و ظهرت النفس بلا حائل و مانع تكون الحقائق على حقيقتها. وأشار سيد الكائنات (صلى الله عليه وآله وسلم) الى هذا الأمر، وقال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلْفَ تَعَرَّضُوا لَهَا»^{٤٦}.

إنّ هذا القسم من رسالة عمر الخيام [المشار إليها في الهامش أدناه] يحتاج الى توضيح عميق مفصّل، والسؤال هنا هو: لماذا آثر الخيام وهو الفيلسوف طريقة الصوفية غير العقلانية؟! *رساله علم و انسانى*

الجواب: ان الصوفية طرحوا الإجراءات المتزلزلة والاعمال الترددية والافكار المتأرجحة العقلية جانباً وتمسكوا بالحب والغرام والهيام والعشق الأعمى الصادر عن القلب الولهان الذي لا يربط بالاستدلال والجدل والمحااجة والمباحثة والمحاورة بأي وثاق ورابطة والتزام. ومن الطبيعي أن هذا الطريق اللأحب يؤدي مباشرة الى

→ au colloque International sur Omar Khayyam, paris UNESCO, 20 - 22 septembre 1999.

٤٦. الخيام، رسالة در علم كليات، باعثناء بهناز هاشمي بور، انظر مجلة فرهنك = الثقافة، العدد ٤٠٣، الخاص بعمر الخيام، ص ٢٩.

«اللَّهُ» سبحانه وتعالى، والى معرفة الحقيقة مُجرّدة^{٤٧}. وهذا ليس معناه أنَّ طريقةً وأسلوب وقاعدة ونمط ومذهب ودأب الفلسفة خطأ معابٌ ركيكٌ غيرٌ صحيح، والواقع أنَّ الفلسفة ومن خلال معرفة الموجودات في هذه الكائنات وامكانية كينونتها تتوجه نحو اثبات وجود واجب الوجود وسبب كافة الاسباب وعلة كافة العلل في دنيا الوجود. كما يطلق على هذا السامي «العقل الأول» و «غاية الجمال» و «واجد الوجود»، بناءً على هذا فان سلوك هذا الدرب اللاحب نوعٌ من الحكمة والحصافة المحضه، لان ربَّ الفلاسفة هو الربُّ الواحد الأحد حقيقةً^{٤٨}.

اضافة الى هذه السُّبُل المؤدية الى الوصول الى واجب الوجود عن طريق معرفة المخلوقات، هناك شوق ورغبة بشرية تحاول معرفة الباري عز وجل، وهذه الرغبة والنزعة لا تتعدى كونها خير وولاء ومحبة خالصة وعاطفة غُرست في كيان و قلب ودم ابن آدم. «أما بوجود حرية الإختيار في نفس الوقت الذي يكون فيه هذا الأمر جميل مليح و ضيء مُدهش لكِنَّه يمنح الانسان حرية التمايل والإنجذاب الى الامر الحسن جزئياً دون انضمام هذا الى الخير الكُلِّي، أو من زاوية أخرى يكون هذا الأمر خيانة للخير الخالص»^{٤٩}.

أما في الطريقة الصوفية يتمكن الانسان أن يُنزّه قلبه ويهذب روحه ويصفي ارادته ويُقرب نفسه الى شبه انسان كامل الأوصاف، ذلك الانسان الذي هجع في سجايه و ذاته وجبلته وطبائعه، وعن طريق هذا السبيل يصل الى قُدرة ومباديء ما وراء الطبيعة و عالم الغيب والأعمال الخارقة^{٥٠}. وهنا تلتقي افكار «عمر الخيام» وافكار

٤٧. بين الشاعر الصوفي الايراني المشهور حافظ الشيرازي هذا الموضوع، وقال:

عشق داند که در اين دابره سرگردانند

عسافلان نسفته پسرگار وجودند ولي

ومعنى هذا:

فد بَيِّنُوا الهَامَهُمُ إِلَهَامَا

أهل الحجبِ ميخوَرُ العلمِ كما

أضحى الهَيَامُ مَحَبَّةً وَعَرَامَا

والعشوقُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْطَنُوا

(مترجم المقالة : فيس آل قيس)

48. L. Garrdet , " Rechercherches de l' Absolu", in *Les Madisde dar el-Islam*, Le caire 1951, pp. 126- 127.

49. *ibid* ., p. 128.

50. S.H. Nasr, *sciences et savoir en Islam*, traduction français par Jean-Guinhut, paris 1979, pp32- 33/

«پاسکال = PascaL» لأن «باسکال» يعتقد أيضاً أنّ القلب يهدي إلى الرحمن، لا العقل ولا افكار الإنسان⁵¹.

هذا الخيام رجل العقل والحجبا والحكمة والحلم والنهه والاشراق ظل إلى آخر رمق من حياته ممتلاً طفوحاً مُفعماً بالحيوية والنشاط جاداً في فعاليته العلمية والأخلاقية من أجل إكمال وإتمام وانجاز معرفة الباري سبحانه وتعالى ثم ودّع هذه الدنيا الفانية بقلب حافل مكتظ طافع بالإطمئنان والسكينة والهدوء واليقين والثوق. وقبيل وفاته كان يطالع «الهيأت كتاب الشفا» وعندما وصل إلى فصل «الواحد والكثير» وَصَّع خِلالَةَ الأَسنان في الكتاب، وبما أنّ الأصحاب قد حَضَرُوا، لذا أوصى وصيته ونهض لإقامة الصلاة، ولم يتناول شيئاً على الإطلاق إلى صلاة العشاء، ثم سجد وقال :

(اللهم إني عرفتك على مبلغ إمكانني، فاغفر لي، فإن معرفتي إياك وسيلتي اليك» وبهذا خُتِمت حياة أحد الفلاسفة و علماء الرياضيات والشعراء الكبار، وانطوى دفتر رجل شغل المجالس الأدبية والعلمية إلى عصرنا الراهن .

ثمره البحث

كما لاحظتم في هذه الدراسة، لم يكن عمر الخيام فيلسوفاً متشائماً، بل كان على العكس من ذلك يُحِبُّ ويؤدُّ الحياة وأمرنا أن نقتدي به ونعشق الحياة مثله ، كما كان يؤكد على أنّ فينا ثقة و يقيناً و حقيقة تُغَيِّرُ و تقلب و تعكس الارادة الشريرة الخبيثة او تقلعها و تبدها و تجتثها من الأعماق و بهذا نُقلِّلُ و نخفض الشقاوة و التعاسة و النحس و البلوى، و المعروف أنّ عمر الخيام لم يكن غير متشائم فقط بل كان غير شكالك و غير مرتاب أيضاً، وإذا بحثنا عن شكوك الخيام وارتبابه و تردده نشاهد توقفاً ووسواساً و ريباً اندفع منه الزاماً واضطراراً و تحججاً على بعض النظريات التي جزم الفلاسفة على توثيقها ومصداقيتها رغم ضعفها وعجزها ووهنها أو التصدي لأفكار القشربين السطحيين .

أمّا معضلة ضعف وعجز ووهن العلم، فلم يكن عمر الخيام في يوم من الأيام قد

51. Blaise Pascal, pensées et opuscles, publiés avec une introduction, des notices, des notes par M. Léon Brunschweig, paris 1904, p. 4581.

الحكيم عَمْر الخيام، فيلسوف مجهول ٣١

فكر في تقليل أهمية العلم أو اسقاط شموخه أو حذف سموه . نعم لم يكن الخيام كذلك ، وكُل ما رامه وأراده وطلبه وقصده هو ايجاد حدّ فاصل وجسر بين العلم والمعرفة من جانب والضعف والعجز والوهن والركاكة من جهة أخرى. وإذا قَارَنًا وَقَايَسْنَا ومائلنا العلمَ بالإنسان وما قدّم العلمُ له من الإمكانيات والعطاء والخدمات نَشْعُرُ بعظمة العلم ووسعته وكبر عطائه، وإذا قَارَنًا ومائلنا هذا العلم بعالم الحقائق وماهية البديهيات على وجه البسيطة و خفايا وغوامض واسرار الخلق والبدء والإيجاد والتكوين والنشأة نشعُرُ بمحدوديّة هذا العلم و ضيق مجاله وقصور ميدانه وصغره وضآلته وبساطته ونزّره.

ملاحظة

لقد واجهت مقالة سعادة الدكتور جعفر آقاياني چاوشى استقبالا منقطع النظير في كافة الأجزاء الجامعية والأدبية والعلمية وقد ارسل عدد من اساتذة الجامعات والطلبة الجامعيين والمثقفين واصحاب الرأي وسراة العلماء والأدباء رسائل اعجاب وتقدير الى الدكتور جعفر آقاياني چاوشى وقد نُشِرَتْ في مجلة «فرهنك» اي (مجلة الثقافة) في العدد الرابع - السنة الخامسة عشرة والعدد الأول - السنة السادسة عشرة (الصادران في مجلد واحد سنة ١٣٨٢هـ ش) الصفحة ٣٦١ - ٣٧٣، وقد اخترنا من هذه الرسائل رسالتين الأولى لطالب جامعي والثانية لأستاذ جامعي لكي يكونا نموذجا لهذا الاستقبال الهائل والتقدير والتبجيل الكبير.

«النموذج الأول»

صاحب العزّة الاستاذ الدكتور جعفر آقاياني چاوشى

قرأت مقالتكُم (الخيام ...) إنّها مقالة نفيسة فاخرة فخمة سامية. دَوّنت باتقان كامل ومنطقي مقبول أخاذ، ولا موضوع فيها غير مُستند أو لا مصدر له، لقد جَسَّمْتَ يا دكتور لنا الخيام بشكل كأنك رفيقٌ وزميلٌ وصديقٌ حميغٌ له عشت معه زمناً، ناهيك عن أنّ هذه المقالة فائضة متدفقة منهمرة ناطقة بمصداقيتها فصيحة بليغة، تمتاز بتشبيهااتها الكثيرة الجميلة الشكل والفحوى.

نعم أنا مغرّمٌ بسلاسة التراكيب، و سبك و نمط و أسلوب و نظام و نسق و طريقة

ومنهج البساطة في الكتابة والإنشاء، ومع الأسف أرى كُتّاب ايران لا يهتمون بمراعاة ذلك، وعلى هذا تكون مؤلفاتهم عُرضة للتفسير والتأويل والشرح والبيان لكونها حمّالة أوجه مختلفة، وكم من مرّة قد قرأت كتباً لكُتّاب ايرانيين، ووقفت في فهم معانيها على مفترق الطرق وربما استنبطت لنفسي شيئاً ما، ولكنني لم أقف على حقيقة فحوى الكتاب و مقصود الكاتب .

ومن دواعي سروري أنّ نمط ونسق كتابتك بعيدٌ كلّ البعد عن شائبة وهجنة ما أشرت اليه، لا أعلم السبب هل أهليتك وطاقتكم وملكتكم الذاتية الكامنة هي سبب هذا أم الثقافة الفرنسيّة وأسلوب ونظام الكُتّاب الفرنسيين هو السبب؟ أنا لا أجد الفرنسيّة، ولكنني قرأت بعض الكُتب الإنجليزيّة، وأعجبتني أسلوبهم وطريقتهم في الكتابة، وإنّ شكل و صورة وصبغة كتاباتكم توازي و تشاكل نمط و طريقة الكُتّاب الانجليز

مع فائق الإحترام

سولماز تقي زاده

طالبة في قسم الفيزياء - جامعة تبريز

«النوذج الثاني»

سيادة مدير مجلة فرهنگ (= الثقافة) المحترم

قرأت العدد الخاص بالخيام من مجلتكم الفصلية كان عدداً متميزاً وخاصةً مقالة الدكتور جعفر آقاياني جاوشي «الحكيم عمرالخيام...» المنشورة في هذا العدد. إنّ هذه المقالة تعتبر من أحسن وأفضل وأعمق المقالات التي كُتبت حول هذا الفيلسوف الايراني الكبير الى يومنا هذا . نعم إنّ كاتب المقالة وضع يده على بيت القصيد من أول سطر كتبه في هذه الدراسة وهي أن الخيام رغم شهرته الواسعة لا يزال مجهولاً .

نعم إنّ الدكتور جاوشي قد عَلِمَ وأَعْلَمَ مظلومية عمرالخيام حيث حكموا عليه من خلال رباعيات معدودة وقالوا هذا هو الخيام . ولكن الاستاذ جاوشي قدّم لنا

الحكيم عُمر الخيام، فيلسوف مجهول ٣١٣

قسطاساً لتقييم أشعار عمر الخيام العريقة ثمّ قدّم تحليلاً لبعض الرباعيّات استناداً على رسائل عمر الخيام الفلسفيّة.

مثلاً أشار الكاتب في هذه المقالة إلى موضوع «الشّر» و ذكر أنّ الخيام يعتقد أنّ الشّر ليس «مخلوق بالذات» وأنّما هو «أمر عارض» في عالم الفطرة والتكوين و النشأة.

أما حول شكّ و ريبة عمر الخيام ترى هذه الريبة أو ذا الشك لم يكن في ذات الواحد الأحد و ليس شكّاً «سوفسطائياً» تفلسفياً، بل هو شكّ علمي يرتبط ببعض النظريات المختلفة حول عالم الوجود و غاية النشأة والتكوين .

بناءً على هذا فالخيام على خلاف ما يعتقدّه الناس، فهو ليس بالمتشائم و ليس بالمرتاب والشكّاك، بل هو فيلسوف متفائل موحد ووجه عزمه و ارادته لكشف الحقيقة.

وهناك أمور مهمة جداً لا مجال لبحثها في هذه العجالة

الدكتور غلامحسين ابراهيمي ديناني
استاذ الفلسفة في جامعة طهران

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی



شروېشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی